مقالات الشيخ عبد الظاهر أبي السمح

تفسير القرآن الحكيم(١)

للأستاذ المفاضل العلامة السيد محمد رشيد رضا

أنزل الله تعالى كتابه المبين وحث على تدبره فقال تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ مُبَٰرَكٞ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ﴾ [ص: ٢٩]، وقال عز من قائل: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلۡقُرۡءَانَ﴾ [النساء: ٨٢]، وقال: ﴿أَفَلَمۡ يَدَّبَّرُواْ ٱلۡقَوۡلَ﴾ [المؤمنون: ٦٨]، وأمر تعالى باتباعه فقال: ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ مُبَارَكٞ فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُواْ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٥]، وقال: ﴿ٱتَّبِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُمۡ وَلَا تَتَّبِعُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَۗ قَلِيلٗا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ [الأعراف: ٣].

ولا ريب أن الاتباع لا يكون إلا بعد التدبر والتفقه في المعاني، ومعرفة ما يريد المتكلم جل وعلا. وقد كان السلف الصالح ﷺ يتلون كتاب الله، ويتدارسونه بينهم ويتدبرونه ويعملون به؛ أفرادًا وحكومات، يحلون حلاله ويحرمون حرامه، ويستنبطون منه كل ما يحتاجون إليه من أحكام في شيءونهم الخاصة والعامة في حالتي اليسر والعسر والسلم والحرب، متقيدين بما وردت السنة مخصصة لعامة ومبينة لما أجمل فيه، وفيما عدا ذلك كان بابه واسعًا لمن أراد أن يفهم ويعمل.

فخلف من بعدهم خلف جمدت قرائحهم وسفهوا أنفسهم فلم يتدبروه، وإن قرأوه قرأوه ألفاظًا على سبيل التبرك. والبركة ليست إلا في تدبره واتباعه، وليتهم وقفوا عند هذا الحد بل تسفلوا حتى صاروا إلى دركة يحرمون قراءته تدبرًا بل يكفرون من يتدبره ويدعو الناس إلى تدبره والعمل به.

(١) مجلة الإصلاح – العدد الثالث عشر- ١/ ٩/ ١٣٤٧هـ.

والقرآن أنزل لهداية الناس جميعًا إلى قيام الساعة؛ لأنه أنزل على خاتم النبيين وقال الله فيه: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ ﴾ [الحجر: ٩].

وإذا كان القرآن كذلك ولا كتاب بعده، ولا نبي يأتي بعد الذي أنزل عليه، وكان معلومًا أن الأزمنة والأمكنة تختلف والحوادث دائمًا في تجدد مطرد، لم يعقل أن يترك الله الناس سدي من غير أن يبعث إليهم كل حين من يجدد لهم أمر دينهم كما في الحديث. ويرفع لهم راية السلف الصالح، ويضرب لهم الأمثال العلمية والعملية، ويريهم كيف يكون فهم القرآن، وكيف كان هو صالحًا لكل زمان ومكان، وأنه ما من جيل أو أمة أو فرد إلا وفي القرآن الحكيم نبؤه وحكمه وما له وما عليه، وما يلزمه في مرضه وصحته، وقوته وضعفه، وعسره ويسره، وحضره وسفره، وحياته وموته، ودنياه وآخرته.

ولقد كان تفسير أستاذنا السيد محمد رشيد رضا صاحب المنار حفظه الله وأمد في أجله من أحسن التفاسير التي يحتاج إليها أهل هذا العصر في بيان الأحكام المناسبة؛ ذلك لأنه راعى في ذلك طريقة القرآن نفسه في الوعظ والتذكير، غير معرج على ما يلهي الناس من الاصطلاحات ما ينفر طائر التفكير.

وكم قد أهاب بالأمم الإسلامية وحثهم على الرجوع إلى كتابهم وتدبره والعمل به، وكشف لهم اللثام عن مخدرات معانيه، وأراهم أنفسهم في مرآة وصفه، وكم بكى عليهم وأبكى، وحذر وأنذر، ووعظ وذكر.

هذا بعض ما يقال في تفسير السيد وعلمه.

والله أسأل أن يعفو عنا وعنه، وأن يبارك لنا ولجميع المسلمين فيه، ويؤيده ويسدده ويكبت أعداءه للدين وحساده.. والسلام.